

المستري بكونك ورفاقه

للقصص الانجليزية شارلز ديكنز

(تابع، نشر في العدد الماضي)



شارلز ديكنز

وانجيه الرجل على حين غفلة إلى مستر تومنان
قائلا : « فتاة جميلة أيها السيد » ، وكان مستر
تومنان يصوب نظراته في مظهر لا يتفق ومبادئ
تلك الجماعة ، جماعة بكونك ، إلى عادة في الطريق
وأجاب تومنان بقوله : « جداً »

— ليست فتياتنا من الجمال كفتيات أسبانيا
مخلوقات نبيلة ... شعر أشقر ... عيون دمع
قدود رشيقة ... مخلوقات حلوة ... جميلة
وتسأل مستر تومنان : « هل زرت أسبانيا
أيها السيد ؟ »

وأجاب ذلك الشخص قائلاً : « قضيت هناك
عصراً »

فسأله مستر تومنان : « هل نعمة من انتصارات
أيها السيد ؟ »

— انتصارات : آلاف ... دون بولارد
فزعبيج ... جراندي ... بنته الوحيدة ...
دونا كرسثينا ... مخلوقة جميلة ... تحبني حب
الجنون ... أب حقود . ابنة عزيزة النفس ورجل
انجليزي وجيه ... دونا كرسثينا في يأس ... ثم
مضخة صغيرة للمدة في حقيبتى ... عملية ناجحة ...
بولارو المعجوز في مرور غالب ... يوافق على
زواجنا ... أيد مشتبكة وفيض من الدمع ... قصة
مؤثرة ... جداً »

وكانت صفات تلك الفتاة ومفاتها قد تركت
أثراً عميقاً في نفس مستر تومنان فسأل الرجل :
« هل السيدة في إنجلترا الآن أيها السيد ؟ »
— « لقد ماتت أيها السيد ... ماتت »
وعندئذ وضع الرجل على عينه خرقه صغيرة
قدرة كانت بقايا منديل قديم وأتم كلامه قائلاً :
« لم تشعر بهدم هيكلها ... وذهبت فريسة »
وسأل سندجراس ذو النفس الشاعرة : « وماذا
كان من أمر والدها ؟ »
— « حزن وشقاء ... اختفى فجأة ... حديث

المدينة كلها ... بحث في كل جهة ... لا طائل ...
يقف انفجار الماء بفتة من النافورة في الساحة
الكبرى ... أسابيع تنصرم ... الماء لا ينبعث
عمال لتطهيرها ... نزع الماء الراكد ... وجه
حارى رأسه إلى أسفل في فوهة النافورة ...
أخرجوه ... تلب المياه متدفقة من النافورة كما لم
يكن هناك شيء .»

ولقد بلغ التأثير بمستر سند جراس مبلغاً عظيماً
فقال : « هل تسمح لي أيها السيد أن أثبت في
دفترى تلك المأساة الصغيرة ؟ »

« اسمح لك لا ريب أيها السيد ... خمسون
غيرها إن شئت أن تسمع ... حياة غريبة . تاريخ
عجيب ليس تاريخاً فذاً ... ولسكنه وحيد في بابه »
وظل الرجل يقص من تاريخه عليهم وهو
يتناول بين الفينة والفينة كأساً من الخمر ، حتى
بلغت العربة قنطرة روشستر ، عندئذ كانت
صفحات كل من مستر بكوك ومستر سند جراس
قد امتلأت بما اختاره من مخاطراته

ولاحت لأعين السفر قلعة قديمة ، فصاح مستر
سند جراس بكل ما وسمه من حماسة شعرية انصف
بها « يالها من أطلال فاخرة ! »

ورفع مستر بكوك منظاره المقرب إلى عينيه
فانطلق لسانه قائلاً : « ما أعظمها موضع دراسة لمن
يعنى بالآثار ! »

وقال الرجل : « آه ... مكان جميل ... قلعة
فاخرة ... حوائط عابسة ... أقواس متداعية ...
برج ... مهديم وهناك كنيسة قديمة أيضاً ... برت
سلمها أقدام الحجيج ... » وهكذا ظل الرجل
يهنئ بمثل تلك المبارات حتى بلغت العربة فندق
« بول » فنزلوا ؛ وهناك سأل مستر ونكل ذلك الرجل

هل يبقى في الفندق ؟ وأجاب الرجل بأنه لا يعتزم
البقاء . ثم أتجه مستر ونكل إلى مستر بكوك وتغم
ببعض كلمات ، ثم سرت همسة من فم مستر بكوك
إلى اذن مستر سند جراس ، ثم من مستر سند جراس
إلى مستر تومنان ، وأخيراً اهتزت الرؤوس كلها بإيماءة
موافقة ، فخطب مستر بكوك ذلك الغريب بقوله :

« لقد أوليتنا اليوم صنيعاً جليلاً أيها السيد ،
فهل تسمح لنا أن نتقدم بدليل بسيط على ما نكته لك
من شكران ؟ إنا نرجو منك أن تشرف مائدتنا اليوم »
« مع فائق السرور ... ولتكن دجاجة وحرق
وما يقدم معها ... على أنى لا أقترح ... ومتى يكون
ذلك ... ؟ »

وأجاب مستر بكوك : نحن الآن قبيل الساعة
الثالثة ، فهل يلائمك أن يكون الأكل عند
الخامسة ؟

« ... يلائمني ذلك تماماً ... عند تمام الخامسة ...
وإذن فلتمنوا بأنفسكم حتى ذلك الوقت ... وانطلق
الرجل بمد أن رفع قيمته قليلاً عن رأسه وأعادها
في فتور ؛ وكانت تبرز إلى النصف من جيب
سراويله تلك الحزمة الملفوفة بالورق البني اللون ،
وكان سريع الخطو خفيف المشية ، ورأوه ينطف
في الشارع المجاور

وأجبه مستر بكوك إلى رفاقه قائلاً : « يظهر في
جلاء أنه رجل كثير الأسفار والتجوال في الممالك ،
وأنه دقيق للملاحظة ونبى الخبرة بطبائع الناس
والأشياء . »

وأجاب مستر سند جراس : « كم يشوقني أن
أرى ما جمته ! »

وقال مستر ونكل : « وأما كم أود لو أنى رأيت
ذلك السكب »

خنجره ، وجرح الفتاة في كعقها ، وهو ما فعل ذلك إلا على سبيل الداعية لحسب . ومع ذلك فقد كان هذا الفتى الظريف أول من حضر إلى الحانة في الصباح التالي ، حيث أعرب عن استعداده لقتاسي الحادث كأن لم يكن هناك شيء .

واستمر مستر بكوك يصف المدينة قائلاً : ويخيل إلى أن التبغ يستهلك في هذه المدينة بكثرة هائلة ، وأن تلك الرائحة التي تملأ شوارعها ليستسيغها ويستعمرها أولئك الذين اشتد ولوعهم بالتدخين . وقد يأخذ السائح الغرير على المدينة وضواحيها ما يراه من قذارتها ، تلك القذارة التي تعد أظهر صفاتها ؛ بيد أن هؤلاء الذين يرون في تلك القذارة علامة الحركة ودليل النجاح التجاري ، يرتاحون ، لا ريب ، إلى ذلك المظهر . وحضر ذلك الغريب عند الساعة الخامسة وهو الموعد الذي حدده . وما هي إلا برهة حتى أحضر الطعام . ولم تك مع الرجل تلك الحزمة الملفوفة في الورق البني ، ولكنه لم يغير شيئاً من هندامه ، بيد أنه عاد أكثر ثرثرة ، إن كان هذا ممكناً فلما رفع الغلام غطاء أحد الأطباق تسأل الرجل : « ما هذا ؟ »

وأجاب الغلام : « هذا سمك طرى ياسيدي » — « سمك طرى . آه ... سمك عظيم ... يرد كله من لندن ... أصحاب عربات الرحيل يأتون بولاثم سياسية ... عربات نقل ملأى بالسمك الطرى ... عدد من السلالات ... قوم ماكرون . كأس من الخمر ياسيدي »

وأجاب مستر بكوك قائلاً : « بكل سرور » وشرب الرجل من تلك الخمر أولاً مع مستر بكوك ، ثم مع مستر سند جراس ، ثم مع مستر

ولم يقل مستر تومنان شيئاً ، ولكنه كان يفكر في دونا كريستينا وفي النافورة ، ومن ثم فقد امتلأت عيناه بالدموع

وبعد أن احتجز هؤلاء غرفة جلوس لهم ، وخبروا غرف نومهم ، وأمسوا بأعداد ما رغبوا من طعام ، خرجوا من الفندق بلقون نظرة على المدينة وما يحاورها

وإنما لا نجد فيما أنبت مستر بكوك في دفتره عن المدينة وما حولها ، ما يشعر بأن ما تركه مظهرها من أثر في نفسه يختلف في شيء عما كتبه غيره ممن زاروا تلك الجملة ، ومن السهل أن نوجز وصفه فيما يلي :

« يتبين لي أن أهم ما تنتجه هذه المدينة وجاراتها ، هو الجند والبحارة واليهود والطباشير والجبري والضباط وعمال الموانئ ، وأن ما يعرض عادة للبيع في شوارعها العامة لا يمدو الواردات البحرية والتفاح والسمك الطرى والجند إلى . وتقع الأعين في تلك الشوارع على مظهر بهيج حتى ، يكون مبينه في الغالب مسرح الجند وزباطهم إذ يتجمعون . ولعمري أن مما يبهج نفس كل امرئ سحى اليد يحب معاشره الأصدقاء ، أن يرى هؤلاء الرجال الغطاريف يعوج بعضهم في بعض ، بفعل ذلك الفيض الحماسي ، ترسله حمة الأجسام والأرواح ؛ ويتجلى ذلك على الأخص ، إذا ذكرنا ، أن السير في إثر هؤلاء ومشاركتهم في مزاحهم ، شيء منة رخيصة بريئة للعامة ، فليس هناك من مظاهر الانبساط ما يفوق انبساط نفوسهم ورقتها . حدث قبل مجيئي بيوم أن أهين أحدهم إهانة بالغة في حانة عامة ، فلقد أبت ساقية الخمر أن تعطيه من خمرها زيادة على ما أخذ ؛ فكان جوابه على ذلك أن استل

الغلام تاركاً الجماعة يستمتعون براحة تينك الساعةتين اللتين تعقبان الغداء.

وقال الرجل الغريب : « عفوا ومهذرة أيها السيد ... بقيت زجاجة ... أدراها ... وجهة الشمس ... أديروا الكؤوس واشربوها حتى الثمالة » ثم أفرغ كأسه وكان قد ملأها منذ دقيقتين ، وعاد فلاء في هيئة من اعتاد ذلك الفعل

وأدبرت كؤوس الراح وطابت مقادير جديدة ، وأخذ الغريب يتحدث وجاعة بكوك ينصتون . وكانت الرغبة في رؤية الحفلة تلح على مستر توبمان بين لحظة وأخرى ؛ وأثرب وجه مستر بكوك بتلك الصبغة ، وشاعت فيه تلك الحرارة التي يبعثها الاحساس العميق بالأخاء ومحبة الرفاق ، وأخذ النعاس كلا من مستر دنسكل ومستر سندجراس فناما ملء جفونهما

وقال الغريب : « بدأ الحفل في الطابق العلوى . اسمع أصوات الجمع ... تختبر القيثارات ... ثم العود ... لقد بدأوا ... » ولقد دلت الأصوات المختلفة التي وصلت الى أسفل البناء أن هؤلاء الراقصين قد بدأوا الشوط الأول وعاد مستر توبمان يقول : « كم أتمنى أن أشهد الحفل : »

وعاد الغريب قائلاً : « وأنا أيضاً كم أتمنى ذلك . امن الله ذلك المتاع الثقيل . . . كتلة ضخمة . . . ليس لدى من الملابس ما أردتبه لأذهب الى البهو . . . موقف نكد . . . أليس كذلك ؟ »

وكان الاحسان والخير العام في مقدمة المظاهر الرئيسية في مبدأ جماعة بكوك ؛ ولم يكن نعمة فيهم من هو أشد ظهوراً في إخلاصه لهذا المبدأ من مستر

توبمان ، ثم مع مستر ونسكل ، وأخيراً مع الرفاق مجتمعين ، كل ذلك في مثل ما يتكلم من سرعة : « وراح يسأل خادم الفندق قائلاً : « جلبة شديدة على السلم يا غلام ... مقاعد صاعدة الى أعلى ، نجارون يهبطون الى أسفل ... مصابيح ... كؤوس ... قيثارات ... فيم كل هذا ... ؟ »

— « للرقص يا سيدي »

— « اجتماع ؟ »

— « كلا يا سيدي ، ليس هو اجتماعاً يا سيدي ، هو حفل من أجل عمل من أعمال البر يا سيدي » وسأل مستر توبمان ذلك الغريب في شوق : « أ يوجد كثير من الفانيات في هذه المدينة ؟ هل لك علم بذلك أيها السيد ؟ »

— شيء فاخر ... مراكز رئيسي . . . كنت أيها السيد ... كل امرئ يعرف كنت .. تفاح .. برقوق ... خمر ... نساء ... كأس من الخمر يا سيدي . »

وأجابه مستر توبمان بقوله : « مع عظيم السرور يا سيدي » ثم ملأ الرجل كأسه وأفرغها

ثم استأنف مستر توبمان حديث الرقص قائلاً : « كم أتمنى لو أتيح لى الذهاب الى ذلك المكان : كم أتمنى ! »

وتدخل الغلام بقوله : « تباع التذاكر في الحانة أيها السيد ، وثمن الواحدة نصف جنيه »

وأعرب مستر توبمان ثانية عن رغبته الشديدة في مشاهدة ذلك الحفل ، ولكنه لم يجد أى رد في عيني مستر سندجراس ، ولا في حلقه مستر بكوك الفارغة ، أكب في لذة عظيمة على الشراب والحلوى وقد وضعا إذ ذاك على المائدة . وانسحب

الى النعاس ، قد أخذت تدب الى حواس مستر بكوك . وكان هذا السيد ، قد تقلب في تلك الدرجات التي تسبق عادة الخمود الذي ينل الأكل وما يلحق به . أخذ يهبط من قمة الانتشاء الى أعماق البؤس ، ويصعد من أعماق البؤس الى قمة الانتشاء ، فكان بذلك كمصباح الغاز في الشارع . لم تكند تهب الرياح على فوهته حتى كان كالمصباح ، انبعث منه أول الأمر وهج شديد اللعان ، ثم ما لبث أن خفت حتى انحسبه قد انطفأ ، وما هي إلا برهة حتى انبثق نوره ثانية ليلتصع لحظة ثم عاد فارتعش ذلك النور واضطرب حتى انطفأ في النهاية . ومال رأسه فاستند الى صدره . ولم يك ثمة شيء مما تستدل به الآذان على وجود ذلك الرجل العظيم ، سوى ذلك الشخير المتتابع ، تقطعه بين آونة وأخرى حشرجة طفيفة .

وكانت قد اشتدت في تلك الآونة رغبة مستر توبمان في أن يشهد بهو الرقص ويرى لأول مرة مقدار ما يتركه جمال غادات كسبت من أثر في نفسه . كذلك اشتدت رغبته في أن يصطحب معه ذلك الغريب ، فهو لم يسبق له علم بتلك الجهات ولا بساكنيها . على حين يتخيل إليه أن ذلك الغريب يعرفها كأنه عاش فيها منذ نعومة أظفاره .

وكان مستر ونكل يقط في نومه ، وكان صديقه مستر توبمان يعرف معرفة خبرة ووثوق مما شاهده من أمر صاحبه في مثل تلك الأحوال أنه إذا استيقظ من نوم كهذا ، فإذ يكون ذلك حتى في الأحوال العادية إلا لكي يلقى بنفسه على سريريه . وصاح ذلك الغريب الذي لم يعرف التعم برفيقه قائلاً : « إملأ كأسك وأدر الخمر » .

وفعل مستر توبمان ما طلب إليه . وكانت تلك

تراسي توبمان . وإنك لتجد فيما أثبت في سجل الجماعة من مواقف ذلك الرجل الفذ ما لا يسهل تصديقه ؛ وفي تلك المواقف ترى هذا الرجل يفتدق مبرانه على بقية الأعضاء ويعد إليهم يد المساعدة

وقال مستر توبمان لذلك الغريب : « إنه لما يسعدني أن أعطيك من ملابسي ما بقي بقرضك ، ولكنك تبدو نحيفاً على حين أرى ... »

— « إنك بدني ... باخوس إله الخمر الشاب ازداد بدانة ... قطع أردانه ... ترجل من فوق برميل ... يرتدى سترة ضيقة من الصوف تلتصق بجسمه ... ها ... ها ... أدر كؤوس الراح »

وايت شعري هل امتعض مستر توبمان بمض الامتناع لتلك اللجة التي طالب بها إليه ذلك الرجل أن يدير الخمر التي ما لبث أن عيها ، أم أنه وقد رأى عضواً من أعضاء جماعة بكوك يشبهه بباخوس المترجل ، قد أحس في ذلك تشهيراً به وتمريضاً شنيعاً ؟ ذلك أمر لم يتبين بعد . ناول الغريب الخمر وتكاف السعال مرتين ، ووجهه إلى الرجل نظرات صارمة حادة استمرت عدة ثوان ، ولكنه لما رأى من ثبات ذلك الرجل وهدوئه ما رأى على الرغم من تلك النظرات لم يبدأ من أن يستردها شيئاً فشيئاً وأبى يعود به إلى حديث الرقص فقال :

« أردت يا سيدي أن أقول إنه إذا كانت ملابسي لا تلائمك لشدة وسعها ، فإن ملابس صديقي مستر ونكل ربما كانت مناسبة » .

وقاس الرجل بعينه ملابسي مستر ونكل وانبسطت أسارير وجهه وهو يقول : « إنها عين ما أريد » وتلفت مستر توبمان حوله ، فرأى أن الخمر التي سافت صديقه مستر سندجرامس ومستر ونكل

الحرفين (P. C) على الجانبين^(١) . وتساءل ذلك الغريب « P. C. ؟ ماذا ... منظر غريب ... صورة ذلك الرئيس و P. C. ماذا تمنون بدينك الحرفين ؟ أتريدون بهما « Pebuliar Coat »^(٢) ؟ وراح مستر توبمان يشرح للرجل في امتعاض شديد وفي زهو وترفع ذلك اللغز الخفي

وأخذ ذلك الغريب يقول وهو يدور على عقبيه ليرى نفسه في المرأة : « تبدو قصيرة عند الوسط ... أشبه بستره رجل البريد العام ... حلال غريبة تلك الحلل ... صنعت بلا قياس ... نجىء معكوسة ... وتلك من غفلات القدر التي لا تفهم ... كل من طالت جسومهم تكون حللهم قصيرة ، وكل من قصرت أجسامهم تكون حللهم طويلة »

وفي أثناء تلك الثثرة ، أصاح الرجل وضع ملابسه ، أو على الأصح ملابس مستر ونكل ، وسار في صحبته مستر توبمان ، فصعدا السلم إلى بهو الرقص وسألها الرجل الواقف بالباب « ما اسمكما أيها السيدان ؟ » . وهم مستر توبمان أن يتقدم ليرسم الرجل القايه فخال صاحبه بينه وبين ما أراد

« لاندكر أسماء قط ... » ثم هس في أذن مستر توبمان بقوله : « لا قيمة للأسماء ... غير المعروفة ... أسماء حسنة جداً في ذاتها ولكنها ليست عظيمة ... أسماء لها قيمتها في جمع صغير ، ولكن لا يقام لها وزن في حفل عام ... قل : رجلان من لندن ... غربيان من ذوى المسكاة ... أى شيء » .

وفتح الباب على مصراعيه وتقدم مستر تراسي توبمان وذلك الغريب فدخل بهما الرقص (يتبع)

السكاس الأخيرة كأنها حافر جملة بمقد النية على تنفيذ ما اعترم . ثم أجه الى صاحبه قائلاً : —

« تقع الحجرة التي سينام فيها مستر ونكل داخل حجرتي ، وأنا لا أستطيع إذا أبطلته الآن أن أفهمه ماذا أريد منه ؛ ولكنني أعرف أن عنده حلة كاملة في حقيقته ، فإذا فرضنا أنك ارتديتها وذهبت بها الى البهو ، ثم خلمتها بعد عودتنا ، فإني أستطيع أن أضعها في مكانها دون أن أزججه الآن أو ألقاه »

« فكرة صائبة ... حيلة فائقة ... موقف نكدامين ... أربع عشرة حلة في ذلك المتاع الثقيل وأراني مضطراً أن ألبس ثياب رجل آخر ! ... فكرة حسنة جداً ، تلك الفكرة ... جداً »

وقال مستر توبمان : « يجب أن نشترى نذاكرنا »

— « أمر لا يحتاج أن نقسم الجنيه قسمين ... دعنا نقترح من يدفع للآخرين ... ألقى الجنيه على المائدة ... افه كما تلف المغزل بأصابعك ... أنا أقول إنك ستجد الوجه الذي رسمت عليه المرأة ... المرأة ... المرأة ... المرأة الساحرة »

وألقى الجنيه على المائدة وظهر منه الوجه الذي طبع عليه الفارس وقد سماه الرجل بالمرأة من باب التظرف ودق مستر توبمان الجرس واشترى النذاكر وطلب إلى الفساح مصباحاً أو شمماً يذهب به إلى الحجرة ؛ وبعد ربع ساعة كان ذلك الغريب يحظر في حلة مستر ونكل

وبينما كان الرجل ينظر إلى ثيابه في المرأة قال مستر توبمان : « إنها حلة جديدة ، وهي أول حلة صنعت تحمل زرار نادينا » . ثم وجه نظر الرجل إلى ذلك الزرار الكبير المذهب الذي طبعت في وسطه صورة وجه مستر بكوك ثم كل من تينك

(١) ما في الإنجليزية الحرقان الأولان من تلك العبارة نادى بكوك (Pickwick Club) (٢) حلة خاصة